

دلائل الإعجاز

وإن أوجبَّ انتفاءَ المجيء عن غيره فليس يوجبُّه من أجلِّ أن كان ذلك إعمالَ نفيِّ في شيءٍ . وإنَّما أوجبَّه من حيثُ كان المجيءُ الذي أخبرتَ به مَجِيئًا مخصوصًا إِذَا كانَ لزيدٍ لم يكنْ لغيره . والذي أبناهُ أن تنفيَّ بلا العاطفةِ عن شيءٍ وقد نفيتَه عنه لفظًا .

ونظيرُ هذا أنَّا نعقلُ من قولنا : زيدٌ هو الجائي . أن هذا المجيءَ لم يكن من غيره ثم لا يمنعُ ذلك من أن تجيءَ فيه بلا العاطفةِ فتقولَ : زيدٌ هو الجائي لا عمرٌو . لأنَّنا لم نعقلُ ما عقَلناهُ من انتفاءِ المجيءِ عن غيره بنفيِّ أوقَعناه على شيءٍ ولكنْ بأزَّه لمَّا كانَ المجيءُ المقصودُ مجيئًا واحدًا كان النصُّ على " زيدٍ " بأنه فاعلُهُ وإثباتُهُ له نفيًا له عن غيره ولكنْ من طريقِ المعقولِ لا من طريقِ أن كانَ في الكلامِ نفيُّ كما كانَ ثمَّ فاعرُوه . فإنَّ قيلَ : فإنَّكَ إِذَا قلتَ : ما جاءني إِلاَّ زيدٌ . ولم يكنْ غرضُك أن تنفيَّ أن يكونَ قد جاءَ معه واحدٌ آخرُ كانَ المجيءُ أيضًا مجيئًا واحدًا . قيلَ : إنه وإنَّ كانَ واحدًا فإنَّكَ إِذْما تُثْبِتُ أنَّ زيداَ الفاعلُ له بأنَّ نفيتَ المجيءَ عن كلِّ مَنْ سِوَى زيدٍ كما تصنعُ إِذَا أردتَ أن تنفيَّ أن يكونَ قد جاءَ معه جاءَ آخرُ . وَإِذَا كانَ كذلكَ كانَ ما قلناهُ من أنَّكَ إِذْما جئتَ بلا العاطفةِ فقلتَ : ما جاءني إِلاَّ زيدٌ لا عمرٌو كنتَ قد نفيتَ الفعلَ عن شيءٍ قد نفيتَه عنه مرةً صحيحًا ثابتًا كما قلنا فاعرفُوه .

واعلمُ أنَّ " حكمَ " غيرَ " في جميعِ ما ذكرنا حكمُ " إِلاَّ " فَإِذَا قلتَ : ما جاءني غيرُ زيدٍ احتملَ أن تريدَ نَفْيًا أن يكونَ قد جاءَ معه إِنسانٌ آخرُ وأن تريدَ نفيَّ أن لا يكونَ قد جاءَ وجاءَ مكانه واحدٌ آخرُ . ولا يصحُّ أن تقولَ : ما جاءني غيرُ زيدٍ لا عمرٌو . كما لم يَجُزُ : ما جاءني إِلاَّ زيدٌ لا عمرٌو .

فصل في نكتة تتصل بالكلام الذي تضعه ب " ما " و " إِلاَّ " .

اعلمُ أنَّ الذي ذكرناه من أنك تقولُ : ما ضربَ إِلاَّ عمرٌو زيدًا . فتدوِّعُ الفاعلَ والمفعولَ جميعًا بعد إِلاَّ ليس بأكثرَ الكلامِ وإِنَّما الأكثرُ أن تقدِّمَ المفعولَ على " إِلاَّ " نحوُ : ما ضربَ زيدًا إِلاَّ عمرٌو . حتى إِذْما ذهبوا فيه أعني في قولك : ما ضربَ إِلاَّ عمرٌو زيدًا